٢٥ حالة النقد السينمائى فى الولايات المتحدة

بقلم : أندرو ساريس

إن حالة النقد السينمائى فى الولايات المتحدة اليوم أكثر صحة من حالة السينما فى الولايات المتحدة ، ففى حين أن الملايين من رواد السينما أخذوا ينأون بجانبهم عنها ، فإن ألوف المتحمسين من الطلبة الجامعيين فى الكليات والجامعات فى طول البلاد وعرضها بادروا إلى أخذ محل هؤلاء الذين هجروها .. ومن هنا ، انتقل دور السينما الاجتماعى إلى التليفزيون بقدر انتقال هذا الدور الاجتماعى من المسرح إلى السينما منذ نصف قرن من الزمان . ومن ناحية أخرى ، تجرى الآن دراسة الأفلام السينمائية – الجديد منها والقديم – بطريقة أكثر جدية وعمقاً من ذى قبل .. وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الدراسات العلمية عن الأفلام التى تصدر الآن فى سنة واحدة أكثر من مجموع ما نشر من مثل هذه الدراسات فى أى عقد ابتداءً من أوائل العشرينيات حتى نهاية الخمسينيات . ولا يقتصر التعبير على الكم فحسب ، وإنما يشمل النوع أيضاً . وهناك منظور تاريخى وحب استطلاع فلسفى حتى فى أبسط العروض الروتينية للأفلام أكثر منه الآن فى أى وقت مضى . وإلى جانب ذلك هناك جدل أكثر سخونة . ولما كنت أحد الذين يخوضون فى خضم هذا الجدل ، فإننى لا أستطيع الادعاء بأن أكون موضوعيًّا

بالنسبة للموقف ، وإنما سأحاول أن أكون شارحًا لموضوعٍ لا واصفًا له وهو موضوع ارتبطت وشاركت به ارتباطاً وثيقاً .

أولاً ، أود أن أضع الأساس لهذا البحث وذلك بإثارة ما بقى من التقليد الكلاسيكى فى النقد السينمائى فى الولايات المتحدة ولقد صدر كتاب فاشل لنيدساى « فن الصور المتحركة » فى عام ١٩١٥ ثم عُدّل وأضيفت له أبواب أخرى فى طبعة جديدة صدرت فى عام ١٩٢٢ . ويعتبر لنيدساى ، وهو شاعر معروف ، بأنه واحد من المفكرين الأمريكيين الذين أضفوا على السينما الهيبة الجمالية التى أحيطت بها الفنون القديمة . ولما كان أبعد ما يكون عن الدعاية لمبدأ عن سينما خالصة ، فإنه رحب بالتأثير الذى لا مفر منه للرسم والدراما والأدب على هذه الوسيلة الإعلامية الجديدة . وفى عام ١٩١٦ أصدر هوجو مونستربرج ، وهو عالم نفسانى ألمانى مهاجر ، كتاب « التمثيلية المصورة .. دراسة سيكولوجية » وهو بمثابة تأمل مهمل ظلماً للعلاقات التكافلية بين السينما الصامتة وجماهيرها . ولكن أشهر النقاد المنتظمين فى عهد السينما الصامتة كان روبرت شـيروود الذى ألف فيلماً بعد عدد من التمثيليات الرائعة مثل « الطريق إلى روما » و « الغابة الميتة » و « إيبى لينكولن فى إيلينويس » . وبينما كان لنيدساى منحازاً إلى فن د . و . جريفيث ، كان شيروود متحيزاً لشابلين وكيتون ولويد ودوجلاس فيربانكس الكبير .

ومع ذلك فإن لنيدساى ومونستنبرج وشيروود لم يستلفتوا انتباهنا إلا أخيرًا ، وهكذا ، فإنه لا يمكن القول بأنهم قد أثروا على مجموعة النقاد السينمائيين الحاليين فى الولايات المتحدة .. ولعل أكثر النقاد السينمائيين الأمريكيين تأثيرًا حتى الآن هما جيمس آجى ، الناقد السينمائى الراحل لمجلتى « تايم » و « ذى نيشن » طوال الأربعينيات ، وروبرت وارشو الراحل المعلق والناقد فى صحيفة «كومنتارى» فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات . لقد مارس وارشو وآجى أقوى تأثيرهما بواسطة مجموعات أحسن

كتاباتهما الوليدة ، وكان آجى يكتب تحت عنوانين « الفيلم » و « التجربة الفورية » . وكان أونيس فيرجوسون الراحل الناقد الذى تأثر به كل من آجى ووارشو ، بمقالاته فى صحيفة « نيوريبابليك » فى المدة بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٤١ ، قد طوى اسمه فى طى النسيان إلى أن صدرت كتاباته فى شكل عام ١٩٧١ تحت عنوان « النقد الفيلمى لأوتيس فيرجوسون » .

ومن النقاد الذين مازالوا يؤثرون على النقد السينمائى ما فى فاربر مؤلف كتاب « الفضاء السلبى » وممارس لشكل من أشكال التحليل الفيلمى الموجه نحو الفنون التصويرية ، وهناك أيضاً باركر شايلر ، مؤلف كتاب « سحر وخرافة الأفلام » وكتاب « هلوسة هوليوود » . ومن النقاد البارزين وليم ك . إيفرسون ، واضع أحسن مؤلفات عن لوريل وهاردى و . و . س . فيلوز وأفلام الغرب وهناك أيضاً جوناس ميكاس الذى يعتبر رائداً من رواد النقد ولويس جاكوبس ، مؤلف كتاب « نهضة الفيلم الأمريكى » الذى يعتبر من أحسن الكتب التى يضعها أى أمريكى عن تاريخ الفيلم .

إن هذه المقدمة تنقلنا إلى النقاد السينمائيين فى الولايات المتحدة اليوم ولكن من أين يبدأ المرء . وهذا لا يعنى مع من ولكن من أين ؟ أمن نيويورك ؟ أمن شيكاغو ؟ سان فرنسيسكو ؟ لوس أنجيلوس ؟ وشنطن أو من أى مكان من مئات الأماكن فى الولايات المتحدة . فإذا بدأنا فى نيويورك كما ينبغى أن يبدأ أى عرض أو تاريخ معقول للنقد السينمائى ، فإننا يمكن أن نفعل أسوأ من البدء بنقاد « النيويورك تايمز » التى تعتبر أقوى صحيفة فى الولايات المتحدة وأكثرها نفوذًا . إن مجموعة الناقدين السينمائيين الذين يعملون فى الصحيفة اليوم تضم فنسنت كانبى وروجر جرينسبون وهوارد طوميسون وآبى وايلر ، وهذه المجموعة من أقوى مجموعات النقاد الذين عملوا فى الصحيفة منذ مولد السينما . وهناك ناقدان سينمائيان بارزان يعملان فى صحيفة « ذى ستارداى

ريفيو» وهما هوليس ألبرت وأرثر نايت ، وتضم القائمة أيضاً ناقدات أبرزهن مسر جيليات والآنسة كائيل .

ومن التطورات اللافتة للنظر أن كثيرًا من النقاد السينمائيين تحولوا فى السنوات الأخيرة إلى تأليف الروايات ، وأن كثيرًا من الروائيين تحولوا إلى نقاد سينمائيين ، ومن النقاد الروائيين ويلفريد شيد وبرندان جيل وهوليس البرت وجوزيف مورجنسترن وبنيلوب جليات وستانلى كوفمان وغيرهم ، وقد جمع أرثر شليسنجر إلى جانب عمله كمستشار سينمائى فنى ، النقد السينمائى والتدريس وعمد كثير من النقاد على سبيل التغيير إلى تسهيل جمع كتاباتهم وهم على قيد الحياة . ومن هؤلاء بولين كائيل ورينا تا أدلر وهوليس البرت وأرثر نايت وستانلى كوفمان وريتشارد شيكل ومانى فاربر وجون سيمون وأندروساريس . وثمة كاتبان من كتاب المقالات السينمائية دخلا حقل الإنتاج وهما بيتر بوجدانوفيتش وسوزان سونتاج ، وجدير بالذكر أن عدد النساء اللاتى يمارسن لوناً من ألوان النقد السينمائى ، كبير بشكل غير عادى بالنسبة لعدد النساء اللائى يعملن فى أى حقل من حقول الأنشطة الفنية ، فإلى جانب الناقدات اللائى سبق ذكرهن مثل بنيلوب جيليات وبولين كائيل وجوديت كريست وريناتا أدلر وسوزان سونتاج هناك أيضاً موللى هاسكل الناقدة السينمائية فى مجلة « صوت القرية » ووانداهيل وكاثلين كارول وآن جوارينو الناقدات فى جريدة « ديلى نيوز » وأرلين جروس الناقدة فى صحيفة « ذى ناشونال ريفيو « وليز سميث فى صحيفة « كوزموبوليتان » وغيرهن .

ولا يتسع المجال لإيراد أسماء أخرى ، لأن هناك أسماء كثيرة جدا وكلها تستحق الذكر . ومن ثم فإننا نرى أن ندع تسجيل مزيد من الأسماء ونتجول إلى الحديث عن بعض المجموعات الأيديولوجية فى النقد السينمائى الأمريكى . أولاً ، هناك النقاش الدائم حول الميزات النسبية للأفلام الأمريكية والأجنبية . ولابد لنا هنا من الإشارة إلى أن عبادة الفيلم الأجنبى نشأت أول ما نشأت فى العشرينيات بالنسبة للسينما الألمانية

والروسية اللتين كانتا تمتازان بحركة الكاميرا التعبيرية ونظريات المونتاج الثورية . وقد اجتذبت سينما النوع الفرنسية بعض المعجبين فى الثلاثينيات لمعالجة « الكبار » للجنس . ولقد سيطرت مذاهب الواقعية الجديدة الإيطالية التى انتهجها كل من روسيلليني وفيسكونتى ودى سيكا وزافاتينى على الفترة من أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات . ثم جاء عصر المخرجين « المعبودين » من أنحاء متفرقة من العالم مثل أنجمار بيرجمان من السويد وفيلليني وأنطونيونى من إيطاليا وميزوجوش وكوروساوا واوزو من اليابان وبونويل من أسبانيا وشابرول وجودارد وتروفو ودويسنيه من فرنسا وسكوليموفسكى وبولانسكى وهانز ووادجا من بولندة وساتياجيت راى من الهند وكارل دربيير من الدانمرك . وكان الجو النقدى فى نيويورك على مر السنين مؤيداً للأفلام الأجنبية من وجهة نظر أستوديوهات هوليوود . وكان هذا النقاش الكبير فى نيويورك يدور حول الافتقار إلى الحرية فى هوليوود حتى وإن كانت الأفلام الأمريكية أكثر وضوحًا من الناحية السياسية من الأفلام الأجنبية . وأكثر صراحة فى نقد مؤسسات محددة مثل الرئاسة والكونجرس والحاكم والشرطة والسجون والقوات المسلحة والعمليات الانتخابية ، ولم تكن هوليوود أكثر تحفظاً إلا فى إطار السلوك الجنسى ، على أنه فى غضون العشرة الأعوام المنصرمة مال « البندول » نحو الجهة المضادة إلى حد بعيد حتى أن النقاد الأمريكيين لم يعودوا ينتقدون السينما الأمريكية لافتقارها إلى الصراحة . ونتيجة لذلك أعرب كثير من النقاد السينمائيين الأمريكيين عن اغتباطهم لظهور سينما أمريكية « محررة » فى حين آثر نقاد آخرون أن يذهبوا إلى حد الإعراب عن استنكارهم لغياب جميع القيود والتقاليد ، الأمر الذى أدى إلى تدهور السينما لا إلى إعطائها حرية حقيقية . وليس ثمة شك فى أن النقاش ينقل من فيلم لآخر ومن ناقد إلى غيره . ولكن هناك فجوة ملحوظة تزداد اتساعاً بين نقاد السينما الوقورة وجماهير النظارة . فمثلاً إن التصاعد الهائل فى التحقيق الجنسى فى الأفلام الأمريكية يعالجه معظم النقاد فى

نيويورك على أنه حالة طبيعية .. ولكن فى خارج نيويورك مازالت القوى المحافظة أو البيوريتانية فى المجتمع الأمريكى قوية جدًّا حتى أن غالبية الزعماء السياسيين يستمعون إلى آرائهم البيوريتانية باهتمام بالغ . وجدير بالذكر أن الليبرتارية (المذهب الليبرالى) والبيورتانية تسيران معًا فى تيار الحضارة الأمريكية ، وقد عمد معظم النقاد إلى تأييد دعاوى الليبرتاريانية ومطالبها .

على أنه مازالت ثمة حقيقة وهى أن غالبية الأفلام الأجنبية قد فقدت صلاحيتها التجارية بسبب المضمون المتطور فى الأفلام الأمريكية ولقد خسرت الأفلام الأجنبية ، بخسارتها لصلاحيتها التجارية ، كثيرًا من حصانتها للنقد . ولم تعد هناك علامات تعجب وصيحات استكبار وتعظيم لأعمال المخرجين السينمائيين الأجانب .

وثمة اتجاه آخر فى النقد السينمائى الأمريكى هو الإلمام المتزايد بأساليب الإخراج والتصوير السينمائى . لقد كان المؤرخون السينمائيون ذوو الاتجاه الاجتماعى فى الماضى ينظرون إلى الأفلام كوسيلة جماهيرية أقل من نظرتهم إليها كفن . ومن هؤلاء المؤرخين جاكوبس وجريرسون وكراكوير وروثا وجريفيث وليبيدا وسادول وغيرهم . وكان معظم النقاد الأمريكيين يميلون إلى تحليل الأفلام بالنسبة لمضمونها الاجتماعى والأدبى . وما زالت هذه النزعة تسيطر على اتجاه النقد السينمائى فى أمريكا .

من أهم الظواهر التى اتسم بها العقد الماضى هو اعتبار المخرج السينمائى فناناً واعيًا ، وقد يعود سبب هذا الإدراك إلى انهيار نظام الأستوديو من ناحية وإلى صخب المخرجين المتزايد أنفسهم من ناحية أخرى . إن المخرج لم يسم أعلى من الشمس . ولما كانت هذه الأخيرة بمثابة شكل للتدليل على دوران الأرض من وجهة نظر العين البشرية غير المعصومة عن الخطأ ، فإن سمو المخرج يعتبر مسألة خيال انتقادى .

إن المخرج كالشمس موجود فى المجموعة الفيلمية ، وقد وجد النقد السينمائى منذ ظهور السينما وإن كان النقد قد عانى من فقدان الذاكرة الأسلوبى نظرًا لاختفاء نسخ

الأفلام من التوزيع بعد عرضها التجارى . إن الناس الذين نشئوا فى الثلاثينيات لم يعرفوا شيئًا على الإطلاق عن سينما العشرينيات اللهم سوى بعض الأفلام القصيرة ذات البكرتين .. وعند حلول عام ١٩٣٤ ، كانت الرقابة قد منعت عرض كثير من الأفلام حتى الأربعينيات والخمسينيات حينما أرغم المذهب التليفزيونى الأستوديوهات أن تفتح خزائنها . إننا مازلنا بعيدين عن ذلك اليوم الذى يستطيع المثقفون فيه أن يحصلوا على الأفلام التى هم بحاجة إليها من المكتبات الفيلمية ، ولكن توزيع الأفلام قد ترك أثره على النقد المعاصر.. إن هناك بعض المنافع التى حققها النقاد من التوزيع المحسن للأفلام القديمة فى الستينيات ، ومن هذه الفوائد ، معرفة أكبر بالماضى وإحساس بالاستمرارية الأسلوبية فى أعمال المخرجين وأساليب كل عصر.

ومن سوء الحظ أن وظائف المخرج تختلف اختلافًا كثيرًا فى فيلم عنها فى فيلم آخر وبين مخرج وآخر . وقد يعتبر بعض النقاد مخرجًا من المخرجين كمبدع وآخرون يعتبرونه مراقباً والبعض يعتبرونه راويا لقصة بصور وكاميرات بدلاً من الكلام ، وهناك بعض النقاد يعتبرونه « ديكوريست » لسيناريوهات الآخرين ، ولكن نتيجة لهذا الاضطراب والخلط بين النقاد والمخرجين ، انقسم النقد السينمائى إلى معسكرين متصارعين تاركًا المخرج الضعيف بينهما .

إن حالة النقد السينمائى فى الولايات المتحدة يجب اعتبارها كعملية أقرب إلى أصولها منها إلى أهدافها النهائية فالتحليل المتعلق بالتركيب والأسطورة والنوع والتعريف الوجودى والموضوعى هى مثل الوسيلة – أى السينما – التى تستهدف تفسيرها وشرحها . إن هذه فترة تسودها موجة عارمة من الإثارة لأن السينما نفسها مازالت فى حالة انتقال مرئى .. إن للنقاد والأساتذة السينمائيين الأمريكيين ميزة وهى رسم طريق المستقبل كفن جديد فى عالم قديم . ومما لا شك فيه ، أن الجدل سيشتد بضراوة أكثر من ذى قبل .